مجلة طبنـــة للدراسات العلمية الأكاديمية issn 2261-7633

المجلد: الثالث 03 العدد: الثاني 02 السنة: 2020 ص.ص: 244 -262

الأطر المعرفيّة في المنجزات اللّغويّة والأدبية الجزائريّة، مدوّنة عيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي – أنموذجا–

The cognitive frameworks in the Algerian linguistic and literary achievements, the blog of Oyoun elbasayer by Mohamad -Bashir al-Ibrahimi - a model–

فاطمة الزهرة المالحي، جامعة باتنة–1– (الجزائر) fatimazohra.elmalhi@univ-batna.dz

تاريخ إرسال المقال: 12-09-2020 تاريخ قبول المقال: 13-11-2020 تاريخ نشر المقال:31–12–2020

الملخص:

تشكّل مدوّنة "**عيون البصائر**" مادّة معرفيّة جامعة لعلوم عدّة كأصول الفقه وفقه اللغة والتصوّف والفلسفة والدين والفكر السياسيّ، ليشكّل الخطاب الإبراهيمي ذو الثقافة الموسوعيّة الزاخرة والسمة اللّغويّة البارزة معالجا قضايا معرفيّة كبرى كالإصلاح السياسي والديني واللّغة العربيّة والتعليم في الجزائر وغيرها...ولعل ما يميّز عيون البصائر هو مواكبتها لقضايا معاصرة، وفي هذا السياق تركّز دراستنا على أهم الأطر المعرفيّة المتناولة في عيون البصائر محاولة منّا إبرازها للقارئ ليتعرّف على أهم القضايا التي شغلت اهتمام الإبراهيمي في تلك المرحلة التي كتبت فيها مقالات "**عيون البصائر**".

الكلمات المفتاحية: الأطر المعرفيّة، عيون البصائر، الدين، السياسة، التعليم، الهويّة اللّغويّة.

Abstract: The “oyoun elbasayer” blog is a comprehensive knowledge subject for several sciences, such as the principles of jurisprudence, jurisprudence language, mysticism, philosophy, religion and political thought, so that the abundant Ibrahimi discourse with a rich encyclopedic culture addresses the major knowledge issues such as political and religious reform, the Arabic language and education in Algeria, etc... Contemporary, and in this context our study focuses on the most important knowledge frameworks discussed in the “oyoun elbasayer” an attempt by us to highlight it to the reader to get acquainted with the most important issues that occupied the interest of Ibrahimi that made him flow ink for her.

Key words: knowledge frameworks, oyoun elbasayer, religion, politics, education, Linguistic identity.

مقدمة:

مرّت الجزائر بتحدّيات عديدة استهدفت هويتها وعقيدتها وتراثها ولغتها العربية، فجاء الخطاب الإصلاحي ليعزّز الوعي الديني والسياسي في جسد الأمة العربية الإسلامية باعتبار المجتمع الجزائري كان غارقا في دوّامة الاحتلال والاستعباد والإذلال ونخص بالذكر هنا" الاحتلال الفرنسي للجزائر"، ويعدّ الإصلاح الديني المرتكز الذي من خلاله يحط الخطاب الإصلاحيّ رحاله وترحاله.

لقد سجّل لنا التاريخ العربي الإسلامي كثيرًا من الخطابات التي جاء بها المفكرون والعلماء بغرض الإصلاح والتغيير والتجديد وكانت لها آثارٌ ايجابية متفاوتة، لعل أبرزها وأهمها هو إبقاء روح العقيدة حيّة في نفوس المسلمين أملا في المبتغى الكبير الذي هو استعادة الأمة العربية والإسلامية موقعها الحضاري الرائد.

يعالج هذا المقال الأطر المعرفيّة المتعدّدة في منجزات "**الإبراهيمي**" ونخص بالذكر مدوّنة "**عيون البصائر**" و الخطاب الإصلاحي ودوره في بناء الهُوية اللغوية الجزائرية، باعتبار أنّ اللّغة هي الحامل الأبرز لكل قومية فهي ذاكرة الأمة وتراثها وقيمها رابطةٌ بين ماضيها وحاضرها، كما تمثل هُويتها و انتماءها و خصوصيتها انطلاقا من مقولة "محمد البشير الإبراهيمي" نفسه: "**اللغة العربية في الجزائر عقلية حرّة، ليس لها ضرّة** "[1] لنبرز خصوصيّة هذا الموضوع و أهمّ الأطر المعرفية التي خاض فيها الإبراهيميّ على غرار الهُوية اللغوية في الجزائر، وكيفيّة تمظهرها في "**عيون البصائر**" مثلها مثل : قضية الدين وفصله عن الحكومة، حرية التعليم العربي، من مشاكلنا الاجتماعيّة جمعية العلماء والسياسة الفرنسية قضية الدين الإسلامي...

يقول عبد الرزاق قسوم: « تبارك الله خلق محمد البشير الإبراهيمي، فجعله كاتب الجزائر الأصيل، وابن العروبة السليل، وحامي حمى الإسلام المثيل (...) لقد وضع لنا "عيون البصائر" فجاءت للبيان والعرفان ومدونة لسيرة الأعداء والخلان يجد فيها القارئ الموسوعة الثقافية والأدبية، والتاريخية والسياسية للجزائر بثوابتها في غير تعصب وبطموحها واستعداداتها للتوثب »[2].

يشيد عبد الرزاق قسوم بالإبراهيمي وما ألّفه في عيون البصائر هذه الجريدة التي تعبّر عن اتجاهها الإصلاحيّ متناولة مواضيع ثقافية وعلمية وأدبية وسياسية، بالرغم من الظروف التي كتبت فيها، فقد كتبت في ظروف صعبة كانت للاستعمار عيونٌ مبثوثة وسيوفٌ مسلطة، كلّ ذلك لم يمنع الإبراهيمي من الدفاع عن قضايا وطنه. **تتحدّد إشكالية هذا المقال في البحث عن أهم الأطر المعرفية التي حاول "الإبراهيمي" معالجتها آنذاك في مدونة عيون البصائر، فما هي هذه الأطر؟ ولماذا ركز على فكرة الإصلاح كأوّل خطوة للتغيير؟...**

أوّلا: الإطار المعرفي الإصلاحي في المنجز الإبراهيميّ

يعالج " **الإبراهيمي**" في "**عيون البصائر**" قضايا سياسية وخاصة بوطنه الجزائر، ودفاعه عن الدين واللّغة والهوية اللغوية وتثبيتها في نفوس الأجيال الجزائرية، ارتبط نسق تفكير "**الإبراهيمي**" بهموم الواقع، إذ تعبّر كتاباته عن أبعاد وأطر معرفيّة شتّى تحيلنا إلى التّجربة والعمق الفكريّ، حيث يكشف به عن مسوّغات القهر والانحطاط التي لحقت بالجزائر وبالمسلمين ومنه تميّزت كتابات ومؤلفات الإبراهيمي بميزات نذكرها:

- **المنهجيّة الدقيقة والعرض المنطقيّ**
- **الجمع بين جمال الصياغة والتعبير عن الفكرة.**

- **الرساليّة.**
- **السخرية الحادة واللّهجة العنيفة عند المناقشة.**
- **ظاهرة الاقتباس والتضمين.**

إنّ الخطاب الفكري والمعرفي في تلك المقالات يبدو متميّزا بمحددات اتّجه فيها "**الإبراهيمي**" إلى استكناه عناصر الصراع ومدى تجسدها في الحاضر، ولعلّ الموضوعات التي كتبها الإبراهيمي هي أكبر دليل وبرهان على الفكر والقراءة العميقة والتتبع للوقائع والأحداث.[3]

لقد نال الخطاب اهتماما كبيرا في الثقافة الغربية، فالجذر " لوغوس" أو مقابلاته التقريبية من لغة (Langage) ، أو خطاب (Discoure)، أو عقل (Raison)، يقوم على تراكيب مستويين، يستند أحدهما إلى نسق موجّه من التقنيات الحجاجية وشروط استعمالها، فمنها المتصلة والمنفصلة البانية للواقع والمبنية عليه، وما عداها مما أعادت "إمبراطورية البلاغة" ليتجسّد الفكر البلاغي الحجاجيّ الغربي من خلال كتاب "فن الخطابة لأرسطو".[4]

وجدير بنا أن نتساءل عن مفهوم الخطاب الإصلاحي؟ وما هي ملامح الهوية اللغوية في الجزائر؟ وكيف يحدّدها الإبراهيمي في عيون البصائر؟

1-. مفهوم الخطاب الإصلاحي

1.1. مفهوم الخطاب:

يتخذ مفهوم الخطاب عند العرب وبالتحديد في قول "**ابن جني**" في كتابه الخصائص من خلال تعريفه للكلام، بقوله: " كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه "، أما علماء التفسير فنجدهم يشرحون مفردة **الخطاب** التي جاءت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، فمنها ما جاء بصيغة **الفعل** في قوله تعالى:« **وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُون قَالُوا سَلاَما** »[5]، وبصيغة **الاسم** في قوله تعالى:« **رب السّموات والأرْضِ وَمَا بَيْنَهُما الرّحْمنُ لَا يَمْلكُون مِنه خطابا**»[6]

وفي العصر الحديث أخذ هذا المصطلح في التطور وقد كان لتفريق "**دو سوسير**" بين "**اللغة والكلام**" دورا في تحديده، وقد جاء علماء بعد "**دو سوسير**" محاولين ضبط المصطلح حين ركّز "**هاريس**" على بنية الخطاب، والتفت " **بنفنست** " إلى موقف المتلقي.

أمّا "**طه عبد الرحمان**" **فيعرّفه** بقوله:« حد الخطاب أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا».[7] ما يستشف من هذا التعريف أنّ حقيقة الكلام هو: ما كان لغرض الإفهام والقصد المخصوص والدخول في علاقة مع الغير، فلا كلام بغير تخاطب (مرسل ومتلقي)، ومن غير أن تكون له وظيفة "المخاطِب" بكسر الطاء ولا مستمع من غير أن تكون له وظيفة "المخاطَب" بفتح الطاء.

2.1. نشوء الخطاب الإصلاحي في الجزائر:

لقد عمل الاحتلال الفرنسي على القضاء على معظم المراكز الثقافيّة العربية ممثّلة في المدارس والجوامع و الزوايا التي كانت قائمة في البلاد قبل الاحتلال فحوِّلَ بعضها إلى معاهد للثقافة الفرنسية وسلّم بعضها إلى الهيئات التبشيرية المسيحية لنشاطها في هدم عقيدة الجزائريين...كما نهب الاحتلال التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية مثل المحفوظات و الوثائق و الكتب في الفترة الممتدة بين: (1830–1900) فضلا عن المكتبات والكتب التي بعثرها

الفرنسيون الحاقدون وأحرقوها كما فعلوا بمكتبة الأمير عبد القادر الجزائري قائد المقاومة الجزائرية في سنوات الاحتلال (1832–1847) بعد أن أسره الاحتلال الفرنسي عام (1847).[8]

أدّى تضافر الأسباب السابقة الذكر إلى انتشار الأمية بين مختلف طبقات الشعب، حيث لم تتجاوز نسبة التعليم 8% بين أطفال الجزائر في المدارس التابعة لحكومة الاحتلال من عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة الابتدائية مما يفسّر محاولة الحكومة الفرنسية طمس الشخصية الجزائرية الوطنية، فكان هذا سببا رئيسا في ظهور المتنورين وهم علماء الإصلاح الذين قضوا زهرة شبابهم في الحجاز وسوريا وتونس ومصر وتشبّعوا بالثقافة العربية الإسلاميّة ...وعادوا إلى الوطن وعملوا على توحيد الجهود وتكتيل القوى الحرة للقضاء على كل مظهر من مظاهر الانحراف التي تخدم الاستعمار وتساعده على البقاء في الجزائر على حساب الشخصية الوطنية، فكانوا هم الذين أحيوا حقيقة الإسلام بالجزائر باثين فيه وعيا دينيا وقوميا. [9]

وفي مقتطف من عيون البصائر " **للإبراهيمي**" الذي يمثل لنا نموذجا حيًّا للإصلاح وإثباتا للهوية اللّغوية من خلال مقالاته الصادرة عن جريدة البصائر ومن أهم ما جاء في عيون البصائر عن دور الجمعية ومهماتها الموكولة إلى أصحابها ما قاله "**الإبراهيمي**" في هذا الصدد « وجمعية العلماء ترى أن التعليم العربي الذي تسعى لحريته وترقيته هو جزء من التعليم العام الذي هو وسيلة التثقيف، والتثقيف هو أشرف مقاصد الحكومات الرشيدة فما بال الحكومة الجزائرية الاستعمارية تعاكس وتضع العراقيل في طريق التثقيف مع أنّها عاجزة عن تعميمه ونشره؟

–أليست تلك المعاكسات كلها لأن التعليم عربيّ إسلامي؟

–أليست النتيجة المنطقية أن تلك المعاكسات كلها حرب على الإسلام والعربية؟

خلاصة رأي جمعية العلماء في التعليم العربي، أنّه أصبح ضرورة من ضرورات الأمّة، وأنّ القرارات المتعلّقة به كلها ترمي إلى التضييق عليه وقتله... »[10]، ماهو الخطاب الإصلاحي وكيف تمظهر في عيون البصائر للبشير الإبراهيمي؟

«إنّ معظم الذين كتبوا في الخطاب الإصلاحيّ هم أولئك الطلبة الذين درسوا في جامع الزيتونة [11*] وجامع القرويين، والأزهر، وفي الحجاز والشام وربما رجع سبب لجوء المصلحين في العلمي لبلاد المشرق إلى أن العلم كان أكثر ازدهارا في مصر والحجاز على وجه الخصوص من بين البلدان العربية».[12]

وممّن اشتهروا بمواقفهم الإصلاحية "**البشير الإبراهيمي**"، (1889–1965) أحد رجال الإصلاح الإسلامي، خطيب بليغ، وعالم بالأدب والتاريخ واللغة وعلوم الدين، و هو من كبار العلماء والمجاهدين ولد في بلدة أولاد براهم بسطيف وبها نشأ وتعلّم ومن ثم رحل إلى المشرق وأقام في المدينة المنورة سنة (1911) من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة (1931)، ومن أبرز نشاطاته الإصلاحية أنّه أسهم في نشر العلم عن طريق افتتاح المدارس منها معهد "**عبد الحميد بن باديس**" الثانوي بقسنطينة ..يقول محمد البشير الإبراهيمي من خلال مقال له سماه "**المعهد الباديسي**" : « ... أماّ قيمة المعهد المعنوية عند الأمة فهي القيمة الغالية، و أما منزلته فهي المنزلة العالية و أما الثقة به فهي المثل الشرود أو الزرد المسرود، إلاّ فئة عرفت بسيماها، إذا أضلها الله وأعمالها، جرت من الخبث على نسق، وسرت من الجهل في غسق، تحارب اللهَ ورسولَهُ وكتابه وتعادي العربية والعلم والتعليم، وتهدّم دعائم الوطنية باسمها، وتتبع في ذلك كله ما يلقي الشيطان وأولياؤه وعابدوه...إن المعهد الباديسي يحاسب التلامذة على أفكارهم ...وكل هذا افتراء وزور وبهتان عظيم، وإن المعهد ليربّي أبناءه على حرية الفكر في حدودها

وعلى حرية القول ما لم تصل إلى الدركة ...فللمعهد نظامه الصارم في تربية أبنائه على الدين وفضائله... إنّ الاستعمار–وهو العدو اللّدود للعربية والدين وتعليمها– لم يبلغ في حربها ما بلغته هذه الفئة العابدة للشيطان...لنقطعنّ من هذه الفتنة دابرها، ولنقعن من هذه الفئة مقيمها وعابرَها» .[13]

2.2.عـــوامل ظهور حركة الإصلاح:

يعود الفضل في ظهور حركة الإصلاح وازدهارها في الجزائر إلى مجموعة عوامل ذكرها الشيخ الإبراهيمي في سجل المؤتمر وهي كالآتي:

1–دعوة الشيخ محمد عبده إلى الإصلاح، وعلى الرغم من معاداة الكثيرين لهذه الدعوة داخل المجتمع الجزائري إلا أنّها أثارت في نفوس الناس التّطلع إلى ماهو أفضل، ويضيف الشيخ الإبراهيمي إن وصول جريدة المنار وإطلاع البعض عليها ساعد في إيصال فكر.[14]

الشيخ عبده، كما أنّ كتب علماء السلف أمثال ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، والشوكاني، كان لها أثرها في تهيئة البلاد لقبول الدعوة الإصلاحية...

ويعترف الشيخ **عبد الحميد بن باديس** بفضل الشيخ محمد رشيد رضا ومجلة "المنار" بقوله:" نشرنا مايلي من تفسير حجة الإسلام محمد رشيد رضا من آخر جزء أصدره من مجلة المنار اعترافا له بفضل السبق إلى نشر هداية القرآن على المسلمين بمجلة شهرية كانت قدوتنا فيما ننشر من مجالس التذكير ".

2–الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه..."

والحقيقة أنّ حركة التعليم في الجزائر والتي تعد نواه لحركة الإصلاح الديني ترتبط بدروس الشيخ عبد الحميد بن باديس في مساجد قسنطينة.[15]

كانت دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس تستغرق معظم النهار فمن بعد صلاة الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء لا ينقطع عن التدريس إلا لراحة قصيرة أو عمل في مكتبه بجريدة أو مجلة الشهاب.

3–عودة مجموعة من الجزائريين الذين كانوا يتلقون العلم في الحجاز ومصر وتونس وغيرها بعد الحرب العالمية الأولى.

ثانيا: الفكر الإصلاحي الإبراهيمي والأطر المعرفية الكبرى من خلال مدونته "عيون البصائر".

يعالج "**الإبراهيمي**" في عيون البصائر قضايا سياسيّة هامّة وخاصّة بوطنه الجزائر وسائر البلاد العربيّة فنجده في كلّ قضيّة سياسيّة يخط بقلمه في جريدة البصائر كلّما جدّ جديد في الشأن السياسي وهذا ما نراه جليّا في مقالاته.

1. الإصلاح السياسي

يعبِّر الإبراهيمي عن آرائه في السياسة والسياسيين وهذا ما يتّضح في العديد من عناوين مقالات "عيون البصائر" من مثل: جمعية العلماء والسياسة الفرنسية بالجزائر، (ذكرى 8 ماي، لجنة فرانس – إسلام، مؤتمر الزوايا ...ليبيا ماذا يراد بها، فصل الدين عن الحكومة...وغيرها من القضايا) ...

1.1.الهُوية اللغوية الجزائرية

أ–مفهوم الهوية:

بادئ ذي بدء، نرى من الضروري أن نقف أولا مع مفهوم "**الهوية**" لنحدّد مختلف مدلولاتها اللغوية وأبعادها الفلسفية والاجتماعية والنفسية، لنخلص بعد ذلك إلى موضوع الهوية اللغوية الجزائرية ونبين ملامحها في عيون البصائر.

الهُوية مصطلح من أصل لاتيني يفيد أنّ الشيء هو نفسه وليس شيئا آخر، وبعبارة أخرى أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو عليه أي أنّ هوية الشيء = ماهيته وقد أشاع عالم النفس الأمريكي–الألماني (إيريك إريكسون) 1994–1902، الذي طرح عدّة إشكاليات من مثل:(أزمة الهُوية)، (وفوضى الهوية)، (تشتت الدور)، وأكدّ على حتمية مجابهة (سؤال الكينونة) ....

حيث يقرّر بأنّ الهوية تعكس: وضعا داخليا مرتبطا بماضي الإنسان وحاضره ومستقبله ويتضمن شعور الإنسان بالتفرد، والتكامل والتآلف الداخلي والتماثل والاستمرارية وإحساسا بالتماسك الداخلي والاجتماعي وهو مرتبط بالمثل الاجتماعية والدعم الاجتماعي.

–هناك تعريفان أردت إدراجهما في هذا المقام وهما:

1–**اللغة** =هُوية معبّر عنها برموز مفهومة، قد استبقى هذا التعريف الرموز ولم يستبعدها وعدّها أمرا لازما للتعبير عن الهوية بما يرتقي بسقوف فعاليتها إلى كونها لغة إنسانية.

2–**اللغة** = هُوية ناطقة، هذا التعريف يكتنز مدلولا بلاغيا فكلمة ناطقة تحيلنا إلى الرموز المفهومة فلهذا التعريف معنى ظاهر أي في حالات النطق والإبانة وكذا في حالات السكوت والإضمار أيضا فالصمت بيان وبوح في كثير من الأحيان وطلب للتفكير والتريث...

إن الحقيقة متمثلة في أن مفردات اللغة تكتسب معانٍ مختلفة بحسب (هوية الناطق بها)، فاللغة لا تكون أداة توصيل للأفكار والمعاني إلا إذا انغمست في هوية صاحبها وانبثقت منها ...[16]

إنّ الهُوية في المعاجم العربية تدور في فلك:" حقيقة الشيء، أو الشخص، المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية "، وهي في اللغة العربية، كما هو واضح في مبناها، من الضمير المنفصل "هُو" الذي يدل على ذات الشيء، أو الشخص، المستقلة عن ذوات الأشياء، أو الأشخاص الآخرين.

واستنادا إلى التعريفات السابقة، لاسيما إذا أخذنا من معاني الهوية ما تعلّق بشخص الإنسان، وما شمل الاسم واللقب وتاريخ ميلاده ومكانه، والنسب العائلي، والصفات المميزة كالطول ولون العينين...لكن هذا التعريف يبقى قاصرا في تحديده لمفهوم الهوية، ليقدّم الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" مفهوما للهوية قائلا: «إن "الذات" أو "هو" Le soi أو Self هو ذلك الشيء (La chose) المفكّر الواعي ...الحسّاس نحو المتع والألم أو الواعي بها الخليق بالسعادة أو الشقاء الذي يكون اهتمامه فيه منصبا على ذاته، ليشكّل شخصا واحدا، وذاتا واحدة... »[17].

وهكذا، ومع الوقت يتسع مفهوم الهوية ويتعقّد ويتشعّب، ويسمى بمسميات أخرى لها نفس المعنى أو تقترب منه اقترابا شديدا، مثل: الشخصية والكينونة والذّات، ليكون مجالا واسعا وحقلا خصبا للدراسات وبخاصة في مجالات البحث العلمي.[18]

ب–الهُوية اللغوية:

إنّ مسألة الهُوية اللّغوية قديمة ومتجدّدة حيث شبّهها أحد الباحثين في هذا المجال كمن يتحرّك في حقل ألغام في ظل ما يهيمن على المشهد اللّغوي من تعدّد لغوي ولهجي على كافة الأصعدة.

ج–تأزم الهوية اللغوية الجزائرية:

ومما يجدر بيانه هنا اتفاق جميع المؤرخين الجزائريين والأجانب أن بدايات الصراع اللّغوي في الجزائر تعود إلى الفترة الاستعمارية حيث إنّ الأتراك وبالرغم من تواجدهم الطويل بالجزائر لم يعملوا على استبدال اللغة والثقافة العربية باللغة والثقافة التركية، فالوجود العثماني كان وجودا سياسيا اقتصاديا أكثر منه تواجدا ثقافيا.

وفي مقابل ذلك كان الاستدمار الفرنسي بمثابة الكارثة الإنسانية التي ضربت الأرض والنّسل والعقل، كان الاستعمار الفرنسي استعمارا استيطانيا يستبدل شعبا بشعب وثقافة بثقافة

يقول "**البشير الإبراهيمي**" في هذا الصدد: «... والأمة الجزائرية من أوفي الشعوب العربية لهذه اللغة وأكثرهم برّاً بها وتمجّدا واعتزازا، و أقواها شبها بها في الشدة على العوادي، والصبر على المكاره، والثبات على المقاومة فالعربية غالبت في هذا الوطن عدّة لغات فلم تهن ولم تغلَب، والأمة الجزائرية ناهضت عدّة استعمارات روحية ومادّية فلم تقهر ولم تخذلْ...جاهدت فوَلَدَت الكتّاب والشعراء والخطباء والوعّاظ؛ وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها إلا على نفسها...وكانت من نتائج هذه النهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها وهي أن تكون رسمية في المدارس والدواوين والأقلام والأحكام...»[19]

ثالثا: اللّغة العربية والتعليم في الجزائر:

التعليم العربي والحكومة عنوان مقالة خطها الإبراهيمي في العدد 67 من جريدة البصائر يقول فيها:

«إنّ هذه القضية التي نصفها اليوم شاهدة قاطعة على ظلم الاستعمار، ونموذج من تعنّته ومصادرته للحق وبيانٌ واضح لطريقة من طرائقه في حرب الدين والعلم، ووسيلة من وسائله في قتل

معنويات الشعوب وعنوانٌ على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريبًا وهو في داره، والعربية أجنبية وهي في منبتها».[20]

من بين أهم القضايا التي شغلت تفكير "**الإبراهيمي**" ودافع عنها فاضحا أسلوب الاستعمار الطامس للغة العربية والهوية بعمله الدائم على تعليم الجزائريين البرامج الفرنسية المفرّغة من المحتوى متعمّدا زيادة العبء على التلاميذ بتمديد ساعات الدراسة لإلهائهم عن التعليم العربيّ، في محاولة منه تكوين جيل ممسوخ يتسم بأساس معرفيّ هش، وبعد حضاريّ مشروخ، جيل لا دين له يصله بخالقه، ولا هوية له توثّقه بماضيه وحاضره ومستقبله.[21]

لقد اعتبر الفرنسيون اللغة العربية لغة أجنبيّة والفرنسية هي اللغة الرسمية، وكان ذلك موقفا واضحا من الدين الإسلامي أيضا لأنّ اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ولغة الحضارة التي كتب بها تراث الدولة الإسلامية، ومن جهة أخرى كان موقفا سياسيًا واضحا أيضا، لأنّ العربية كانت هي لغة البلاد الإدارية والقضائيّة والتعليمية.[22]

رابعا: الإصلاح الدينيّ:

إنّ من ضمن أهداف جمعية العلماء الجزائريين الأساسية المحافظة على الشخصية الجزائرية الإسلامية العربية بالرغم من أن القانون الأساسي لم ينص عليه صراحة، بل إنّ الحركة الإصلاحية عملت على تحقيق ذلك منذ نشأتها، ويكفي دليلا على ذلك المقالات الكثيرة الداعية إلى المحافظة على الذاتية الجزائرية بالإضافة إلى المدارس التي كانت تعلّم تلاميذها من أول يوم شعار العلماء المعروف **«الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني»** [23]

ومن بين أهم المقالات التي نادى بها الإبراهيمي مصلحا وخطيبا وإماما القضايا الآتية:

- أثر الصوم في النفوس
- الإسلام.

- عيد الأضحى
- معنى العيد
- من وحي العيد.
- قيمة عواطف المسلمين في نظر فرنسا.
- عيد الأضحى وفلسطين.

يقول الإبراهيمي: «الإسلام دين تربية للملكات والفضائل والكمالات، وهو يعتبر المسلم تلميذا ملازما في مدرسة الحياة، دائما فيها دائبا عليها...صوم رمضان محك للإرادات النفسية، وقمع للشهوات الجسمية ورمز للتعبد في صورته العليا ورياضة شاقّة على هجر اللذائذ والطيبات...العيد في معناه الديني كلمة شكر على تمام العبادة، لا يقولها المؤمن بلسانه، ولكنها تعتلج في سرائره رضىً و اطمئنانا ».[24]

عالج الإبراهيمي مسائل دينيّة مختلفة

خامسا: الإصلاح الاجتماعي:

إنّ من بين القضايا التي كتب عنها "الإبراهيمي" وحاول إصلاحها انطلاقا من المجتمع والواقع السائد آن ذاك في الجزائر كقضايا الطلاق والزواج والعادات والتقاليد البالية كزيارة الأضرحة وإقامة الزرد واصفا إيّاها بـ "أعراس الشيطان" يقول في ذلك:

1–الزواج:

إنّ من الموضوعات الاجتماعية التي خاض فيها الإبراهيمي الزواج وحث ورغّب فيه قائلا: « أعضل هذه المشاكل وأعمقها أثرا في حياة الأمة، وأبعدها تأثيرا في تكوينها مشكلة الزواج بالنسبة إلى الشبان فالواقع المشهود أنّ الكثير من شبابنا –وهم أملنا وورثة خصائصنا–يعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق؛ ويترتب على ذلك أن الكثيرات من شوابنا يتعطلن عن الزواج إلى تلك السن....».[25]

2–الطلاق:

« حل عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل، وزيال خليط، وانفضاض سامر، فيه كلّ ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب».[26] لأنّ الطلاق يهدّم الأسر ويفرق ويشتت العائلة كان للإبراهيمي كلمة في هذا الشأن لما له من أبعاد خطيرة على المجتمعات وبخاصة المجتمع الجزائري الذي يوليه الاهتمام بالإصلاح والتوعية نحو إعداد فرد صالح يحمل قيما لا تحيد عن مبدأ وتعاليم الدين الإسلامي.

ج–أعراس الشيطان:

- «هذه الزرد تقام في طوال العمالة الوهرانية وعرضها هي أعراس الشيطان وولائمه وحفلاته ومواسمه، وكلّ ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كله رجس من عمل الشيطان، وكلّ ما يقع فيها من البداية إلى النهاية كله رجس ».[27] ينبّه "**الإبراهيمي**" في هذه المقوله بما يسعى إليه المستعمر من زرع للفتن وهدم للقيم الإسلامية ونشر للبدع والشرك فنراه يبث سمومه ويعدّ العدّة في استغلال منه لمن هم أقلّ وعي وتمسك بالدين وتعاليمه لينشر ما يسمّى بالزرد وما يقومون به من بدع شيطانية مخالفة للدين الإسلامي لهذا سعى "**الإبراهيمي**" جاهدا كمصلح دحض هذه التعاليم البعيدة كل البعد عن ديننا وقيمنا.

خاتمة:

إنّ أهم النتائج التي توصّل إليها هذا المقال تتلخص في الآتي:

– يهتم "**الإبراهيمي**" في مدونته "عيون البصائر" بمرجعيات معرفية أساسية لكل أمّة وهي: الدين واللّغة والهوية والتعليم والسياسة...

يضع الشيخ "**الإبراهيمي**" بصمته الإصلاحيّة في كتاباته حيث حمل على عاتقه بناء الفرد الجزائري لذا نرى المستعمر الفرنسي يضيق الخناق في كل مرة على الإبراهيمي وفي كل فرصة أتيحت له فسجن وعذب عديد المرات.

– شملت مقالات "**الإبراهيمي**" جانبا إصلاحيا في جوانب شتى وهذا ما نلمسه في مدوّنته من خلال المواضيع التي يتطرق لها في محاربة المستعمر والفساد الأخلاقي بغية النهوض بالفرد الجزائري وتوعيته وإكسابه قيما متشبعة بتعاليم الدين الإسلامي محبّا للغته العربية.

- مقالات "**الإبراهيمي**" لا تصوّر الشيخ في أبعاده الفكريّة والمعرفية بصفة كاملة وجامعة، بل إنّ الدارس يحتاج إلى إمعان وتعمّق وقدر كبير من التخيّل حتّى يتمكّن من استنطاق مكامن خطاباته وأبعادها المعرفيةّ الواسعة فقد نظلم الخطاب الإبراهيمي، لو أنّنا قصرناه على الجانب المعرفي الفقهي، الصوفي، البياني، البلاغي، وفصلناه عن الجوانب المعرفية الأخرى العقلية والفلسفيّة والعلميّة.
- من السمات البارزة في الخطاب الإبراهيمي استعانته بجميع المناهج التاريخية والتحليلية والفلسفية والنقدية...لتترجم الأهميّة الموسوعيّة والمعرفيّة التي طبعت مقالاته فما من قضية إلّا وعالجاها بحنكته وتبصره فهو المصلح، الخطيب، الإمام، المربي، المناضل الرافع فوق أكتافه قضايا مجتمعه وشعبه حيث ارتبط نسق تفكيره بهموم واقعه ومشكلاته.

– تمثّل "عيون البصائر إحدى المرجعيات المعرفية الفكرية والثقافية وكذا التاريخية لكل فرد أراد التفقه والتزوّد والوقوف على معطيات أدبية وفلسفية وفي التاريخ والأعلام والنثر والسجع ...وغيرها من المواضيع المعرفيّة المهمّة.

الملحق:

الشكل رقم–1–

صورة للشيخ العلامة " **محمد البشير الإبراهيمي**".

الهوامش:

[1]–محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج3، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، لبنان، 1997، ص 206.

[2]– المصدر نفسه، ص17.

[3]– ينظر: محمد عطا الله، الخطاب الحجاجي في المقالات الإصلاحية لمحمد البشير الإبراهيمي مقاربة لغوية دلالية، رسالة ماجستير في علم الدلالة، كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة باتنة، 2011–2012م، ص20.

[4]– عباس حشاني، خطاب الحجاج والتداولية (دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي)،عالم الكتب الحديث،(د–ط)،اربد الأردن،2014م،ص21.

[5]– الفرقان، الآية 63

[6]– النبأ، الآية 37.

[7]– طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي،ط1، الدار البيضاء المغرب،1998م،ص215.

[8]– عمار طالبي ابن باديس حياته وآثاره، دار المغرب الإسلامي 1983، ط2، ج3، ص 58.

[9]– المرجع نفسه، ص59.

[10]– محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتحقيق: أحمد طالب الإبراهيمي ،ج3"عيون البصائر"، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت لبنان،1997، ص 80.83.

[11]– الزيتونة: جامع شهير في تونس، بني نحو 732م، وجدّد بناءه بنو الأغلب نحو 840م، ثم أصبح جامعة كبرى في عهد الحفصيين ...

[12]– أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص172.

[13]– ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 216.215.

[14]– مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1349هـ–1931م،1358هـ–1939م، دار بني مزغنة، دط،2015، ص55.

[15]– سليم مزهود، مفهوم الخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجيستير، جامعة منتوري قسنطينة،2005–2006، ص82–83.

[16]–عبد الله البريدي، اللغة هوية ناطقة منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، المجلة العربية العدد 197، الرياض،1434 هـ، د ط، ص26.

[17]– أحمد منور، أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية دراسة أدبية، دار الساحل، الرغاية الجزائر،2013، د ط، ص 18–

[18]– المرجع نفسه، ص 18.

[19]– ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص220.

[20]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص33.

[21]– أحلام بالولي، بلاغة اللغة في أدب المقال الإصلاحيّ عند محمد البشير الإبراهيمي، رسالة ماجيستير، تخصص: بلاغة ونقد أدبي، جامعة العقيد آكلي محند أولحاج، 76–77.

[22]– أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8 (1830–1954)، عالم المعرفة، ط1، الجزائر، ص20–21

[23]– مازن صلاح حامد مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية 1349هـ–1931م،1358هـ–1939م، دار بني مزغنة، د ط،2015م، ص83.

[24]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص293.

[25]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص 297.

[26]– محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، ص319

[27]– المصدر نفسه، ص 320.